الفصل الرابع

أسباب نشوء الشكوك والأوهام

obeikandl.com

obeikandl.com

أولًا: (أنسنة) الخالق و(تأليه) المخلوق!

هذه ليست مبالغة بل هي عين الحقيقة، فالتصورات البشرية الخاطئة عن الذات الإلهية، التي يستبطنها المرء بذهنه عند استحضار قضية الخلق والخالق والوجود، خطيرة جدًّا على إيمانه، وأسوؤها على الإطلاق اعتقاد التكافؤ والمساواة (النظرية) بين الخالق والخلق عن طريق التصور الخاطئ و(تجسيد) الإله وتشبيهه بالخلق، حتى وإن جعل تصوراته عن الذات الإلهية هي الأكمل والأتمّ، تبقى خطورة هذا التصور قاتلة، حيث يصل الأمر إلى التمادي في تفعيل هذا الخيال الخاطئ ليصبح وكأنه مسرح دنيوي محدود يحوي جميع المتحاورين والمختلفين على مآلات الوجود، على أن يكون الخالق ﷻ في علاه طرفًا داخل هذا المسرح المحدود، بعبارة أخرى بخس حق الخالق العظيم في التصور والاعتقاد والصفات مقابل تضخيم ذات المخلوق الضعيف الهامشي في عالم الوجود، تصور يقضي على جميع فرص الاستيعاب الإيمانية وفهم الحقيقة، ويتعارض مع سمو الأسماء والصفات العظيمة للخالق، وقد لا يسلم من هذا الداء أحد ما لم ينتبه لهذا المزلق الخطير ذهنيًّا، فيستحضر من فوره عظمة الخالق وعلو صفاته وقداسة أسمائه، دون تجسيد أو تشبيه أو تمثيل زائف، بل الإيمان مجرد الإيمان استنادًا إلى خبر الوحي، وأنه ليس كمثله شيء، وأنه يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار، ولا تحويه الخيالات، ولا تصل إليه التصورات، تعالى الله عن كل وصف لا يليق به، وتقدس عن كل تشبيه أو تمثيل بشري قاصر.

هذه خطيئة بشرية كبرى بحق رب البشر يدركها أصحاب العقول السليمة، ولو تتبعت نقاش غالبية الفلاسفة عبر التاريخ لأدركت أن أكثر جدالهم عن الخالق مبني على تصوراتهم البشرية عن خالق (مجسد مجسم حاضر في حيز زماني ومكاني) متصور تصورًا بشريًّا، ذي صفات متخيلة ومتصورة ومستوعبة ضمن نطاق فكرهم البشري الضيق جدًّا، فهم يفترضون أن هناك طرفًا مكافئًا يقف على الضفة الأخرى من مسرح

الجدل لإجراء مناظرة أو محاورة معه! إنهم بكل وقاحة وبجاحة يخاصمون الخالق في أهلية الربوبية، وأحقية الألوهية، إنهم يتخيلون إلهًا (منافسًا للبشر)، ولهذا استهانوا بالأمر، وخاضوا فيه مع كل خائض، ومع هذا كله فلم يخرجوا بشيء، لم يستحضروا ولو من خلال استقراء الموجودات المحسوسات من حولهم أن وراءها من هو أعظم وأعظم منها عظمة مطلقة يستحيل عليها وعلى العقل البشري تخيلها مهما أوتي من علم أو طال به الأمد، هذا فوق كونه حيًّا لا يموت، والخلق كلهم يموتون، وأنه أولٌ ليس قبله شيء، وآخرٌ ليس بعده شيء، وظاهرٌ ليس فوقه شيء، وباطنٌ ليس دونه شيء، وهو على كل شيء قدير، وغير ذلك من صفات القدرة والكمال التي لا يتصف بها أحد من الخلق، ولم يأتِ أحد غيره في الوجود يدعيها أو ينازعه فيها بحق، أما الإنسان فقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.

إن هذه التصورات الخاطئة تحديدًا من أخطر أسباب نشوء أزمة الشك والبلبلة الإيمانية، وتشكل مأزقًا فكريًّا جوهريًّا عند غالبية البشر، ولم يسلم منها حتى أولئك المؤمنون من الفلاسفة الذين لا يستنيرون بنور الوحي، فلم يسلموا من الوقوع تحت تأثير الأنسنة الجائرة بحق الله، فإذا أشار أحدهم إلى عظمة الله تجده يتحدث عن تصورات عقلية تجسيدية مدركة، حتى وإن وصفها بأنها فوق العقل والتصور، فما يلبث أن يدخل بتفاصيل تكييفها وتشبيهها وتجسيدها بهدف التوضيح، فيقول مثلًا (ذكاء الرب! وعقل الرب! وكفاءة الرب! وهندسة الرب!) فتضيع الحقيقة المنشودة بسبب ذلك التشبيه الجائر بحق الخالق، وتضطرب وجهة بوصلته، فيعود مرة أخرى للتيه، بينما شأن الخالق مختلف كل الاختلاف عما يصفون، ليس (ربًّا) ولا إلهًا ولا خالقًا ذلك الذي (يُؤنسِنُهُ) المفكر في خيالاته (أي يجعله في صورة إنسان وقدرته) ليتسنى له وضعه ندًّا في مقابل الفكر البشري، وكأنه يجادله ويحاوره طمعًا في النصر عليه أو استخلاص شيء منه! وهذا (الرب) الافتراضي الذي يوضع في هذا المكان، وينزل هذا المقام حري بكل عاقل أن يكفر فيه، بل ويلحد فيه ولا لوم عليه ولا عتب؛ لأن الله الخالق العظيم ليس كذلك، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهو أعظم وأكبر وأجلّ من أن ينزل هذه المنزلة الوهمية في ذهن مخلوق.

ومن أشهر من وقع في هذا المأزق الإيماني الفيلسوف (فويرباخ)[1] الذي يُعدّ من رواد (الإلحاد) الحديث، وتتفاقم المشكلة أكثر عندما نجد أن مشاهير المادية الإلحادية مثل (ماركس) (ولينين) اعتمدوا على آراء (فويرباخ) لتسييس الإلحاد فيما بعد، فاستحسنوا تصوراته للوجود التي أطلقها من خلال ثلاث مراحل: الأولى تصوراته حول الله، والثانية حول العقل، والثالثة حول الإنسان، ثم انتهى به الأمر إلى (أنسنة) كل شيء بما في ذلك الذات الإلهية التي تخيلها في الإنسان وعلى صورته ولكن بهيئة متقدمة وبصورة أضخم!

انظر كيف يسلك الإنسان الطريق الخطأ في محاولته للوصول إلى الحقيقة، ومن أسوأ تبعات هذا الخطأ أن يجعل الإنسان الضعيف من هذه الأوهام والخيالات الفارغة أساسًا لتفسير الوجود كله، وأخطر من ذلك أيضًا محاولاته تصور وجود خالق الوجود بهذه الطريقة العمياء، ولقد حذر من هذه التصورات شيخ الإسلام (ابن تيمية)[2] رحمه الله بقوله: «العالَم الإلهي لا يجوز أن يستدل به بقياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع، ولا قياس شمولي يستوي فيه أفراده؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا أن يدخل هو وغيره تحت قضية يتساوى أفرادها»[3]، وهذه الأقيسة التي توضع في غير موضعها هي التي ضيعت غالبية الفلاسفة في العالم، عندما اتخذوها منهجًا في الاستدلال على العالم الإلهي، ويُعدّ الفيلسوف (توماس هوبز)[4] من القلائل

(١) لودفيغ فويرباخ Feuerbach Ludwig (١٨٠٤- ١٨٧٢م) الموافق (١٢١٩- ١٢٨٩هـ) صاحب المنهجية الفيوبارخية: (نظريات في الفكر الإلحادي الحديث، مشير باسيل عون، بيروت: دار الهادي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣).

(٢) أحمد بن تيمية (١٢٦٣- ١٣٢٨م) الموافق (٦٦١- ٧٢٨هـ) مفكر وفقيه حنبلي إصلاحي ولد في حران ـ تقع داخل تركيا حاليًا- عاش في الشام برز في معظم العلوم الدينية له مصنفات فاقت الخمس مئة تعرض للسجن مرات عدة ومات في السجن: (دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية، عبدالله الغصن، دار ابن الجوزي، الدمام، ص١٣٩).

(٣) درء تعارض العقل والنقل ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الجزء الأول، ص٢٩.

(٤) توماس هوبز Thomas Hobbe (١٥٨٨- ١٦٧٩م) الموافق (٩٩٦- ١٠٩٠هـ) فيلسوف إنجليزي ومفكر سياسي يُعدّ من أشهر رواد الفلسفة المادية الحديثة يرى كل ما هو موجود مادة وكل ما يتغير حركة والأساس النهائي لكل شيء هو المادة والحركة من أشهر كتبه (مبادئ القانون الطبيعي والسياسي) نشره عام ١٦٤٠م: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الثاني، ص٥٥٤).

الذين توقفوا مدركين بشريتهم المحدودة ومعترفين بقصورهم عند هذا التصور، حين يقول: «لا يمكن للباحث المحدود أن يتوصل أبدًا إلى معرفة ما لا نهاية له، وكل ما نتعلمه نحن البشر إنما نتعلمه من خيالاتنا، ولكننا لا نملك خيالًا وصورًا لما لا نهاية له؛ ولذلك يستحيل أن يكون للإنسان أو أي مخلوق آخر تصور لما لا نهاية له»(١).

إن مجرد التفكير في المقارنة هنا يُعدّ خطأ فادحًا في حق الخالق على الرغم من أنه لا مقارنة مطلقًا بين الخالق والمخلوق، فما أجرأك على ربك أيها الإنسان الضعيف في جسدك وعقلك وحياتك كلها، أنت العاجز عجزًا مطلقًا عن أن تستوعب ما حولك من الموجودات في كوكب الأرض، بل في الأمتار القليلة المحيطة بك باعتراف الناس جميعًا مسلمهم وكافرهم، مؤمنهم وملحدهم، كيف بلغت بك الجرأة على خالقك أن ترسم في مخيلتك الضعيفة تصورًا (ما) عنه؟ ولربما جسّدته في هيئة وشكل معين متعاظم، ولكنه متصور ومحدود بقدراتك التصورية، ثم تتعامل مع هذه الصورة الخيالية (المضحكة)! التي لا وجود لها إلا في عقلك الغريب الذي يريد أن يبرهن من خيالاته ما يتعارض مع البراهين القائمة على الحقائق الكبرى المعلومة والمحسوسة، وأهمها هذه الحقيقة الدامغة لكل تصور باطل بأن الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى: ١١].

ستختلف الصورة جذريًّا في نظرتك للوجود قاطبة، لو أنك قمت بتصحيح هذه التصورات الكارثية في ذهنك حول الخالق، وأولى خطوات هذا التصحيح أن تدرك مستحضرًا ومركزًا أنك إذا تحدثت عن شأن الخالق، فإنك إنما تتحدث عما لا يمكن وصفه ولا تصوره ولا تخيله ولا تشبيهه ولا تكييفه من قبل عقول المخلوقين، فهو العظيم والكبير والقدير والعليم، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار، يختار ويعلم ما في النفوس، ولا تعلمه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]. صفاته عظيمة عظمة تسمو فوق الإدراك والتصور والخيال، ولا ندرك ما وراءها على الإطلاق، بل نقبلها ونتقبلها كما جاءتنا مؤمنين بها على الوجه الذي يليق بالله تعالى، ونستسلم له استسلامًا مطلقًا لا يخالطه شك ولا ريب ولا حرج، منشرحة صدورنا بذلك رغمًا عن أنف كل مكابر

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٨.

وجاحد، وقد سجل التاريخ لبعض الفلاسفة المتجردين أنهم اقتربوا بفطرتهم من هذا الاعتقاد السليم بالخالق ولو من وجهة نظرهم الخاصة، فقرروا التوقف عند ذلك الحد الذي وصلوه إكبارًا وتعظيمًا للخالق، وذاك أحكم قرار اتخذه الإنسان المفكر عبر التاريخ؛ لأن مرد الجميع إلى الله وحده قولًا واحدًا، سواء آمنوا في حياتهم الدنيا أم كفروا: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

*****

ثانيًا: خطورة القفز إلى المثال

الإرهاصات الغيبية واستماتة الإنسان في محاولة فهمها لا تنتهي، وتبقى نقطة البداية الصحيحة في جميع أمور الغيب هي الأخذ بمفتاح الأسرار كلها وكنز المعارف الكونية وبلسم الطمأنينة واليقين، ألا وهو الإيمان بالله الذي يتحقق عندما تقوم باستحضار أمرين عظيمين: هما الوجود، والأسماء والصفات، فالإيمان بوجود الله هو أصل كل أصل، ومنه ننطلق إلى ما بعده في كل شيء معرفي فرعي، وقد سبق الإشارة إلى ذلك بأنه إقرار مطلق بوجود الله، وبربوبيته وألوهيته، أما مسائل الصفات فهي أمر عظيم جدًّا وذات شقين: الأول، معرفتها بألفاظها ومعانيها التوقيفية، كما أخبرنا الله عن نفسه دون إضافة من أحد، وهذا واجب أدبي وأخلاقي على كل إنسان تجاه خالقه، والثاني، تجنب تأويلها أو الادعاء بإدراك حقيقتها؛ لأن هذا أمر فوق قدرات استيعاب وتصورات البشر، وقد استعصى على الأمم السابقة فهمها، فأصبحوا ما بين منكر ومشبه ومكيف ومجسم ومعطل ونافٍ ومثبت، وكل ذلك يرجع إلى إشكالية تصورات بشرية خطيرة جدًّا تحشر التفكير في أضيق زواياه البشرية لفهم وجود غير متناهي الأطراف والعجائب، إنه حيز التصورات البشرية قياسًا على الأشياء المحسوسة المحيطة بالإنسان، كي تصبح مرجعًا تصوريًّا خاطئًا على حين غفلة منه، يتصور ما لا يمكن تصوره، ثم يخضعه قياسًا خاطئًا على تصوراته المحدودة جدًّا.

ولتوضيح هذه الإشكالية الخيالية، أي وقوع التفكير في حبائل ورطة (المثال) المجسم، والرجوع إليه بوصفه مقياسًا لتصور ما دونه وما فوقه، تخيل لو أن إنسانًا نشأ

مع النمل فقط ولم يَرَ طوال حياته كائنًا آخر سوى النمل، ثم قيل له: هناك فيل ضخم وزنه عشرة أطنان، أو حوت ضخم جدًّا يزن مئة طن، لما تصورهما سوى نملة ضخمة، أو إنسان ضخم فيما لو أنه رأى إنسانًا آخر في حياته، فانطبع المثال في خياله، أي إن صورة النمل وحدها أو الإنسان والنملة قد انطبعت، وتتضاعف في مخيلته نموذجًا أوحدًا للحي حتى أصبحت في الحجم الذي قيل له، وكذا الحال لو نشأ مع فيلة فقط، ثم قيل له: هناك نملة لا يزيد طولها على ٤ ملليمترات، لتصورها أنموذجًا مصغرًا جدًّا من شكل الفيل.

وهكذا يبقى فكر الإنسان مع الغفلة محصورًا في خياله الضيق أصلًا أمام نماذج حية أدركها حسيًّا من مخلوقات رآها في حياته، منها من يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع، ومنها ما يمشى على بطنه، ومنها ما لا يشاهده الإنسان بعينه المجردة، فإذا جاء الحديث عن الله، وهو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء والذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا التي تليق بجلاله وقدرته وعظمته وحده، تستقبله بعض العقول البشرية بتصورات تجسيدية خاطئة، فيقدح في ذهنه صورة المثال الأكبر في مخزون عقله، بحيث يدور حول هذه المجسمات التي عايشها، فمهما تصور الأمر شأنًا راقيًا بل الأرقى، إلا أنه لا يذهب بعيدًا في خياليه القاصر عما عايشه دون أن يملك التخلص من هذه التبعية الخيالية الملازمة له، والحقيقة أن الإنسان العاجز عن استيعاب ما حوله من مخلوقات، بل عاجز عن الإحاطة بفهم نفسه، لا يمكن أن يحيط بشيء من علم الله إلا بما شاء الله، فكيف يحاول تصوره أو رسمه في خياله، وهو الذي ليس كمثله شيء؟!: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ﴾[البقرة: ٢٥٥] ولقد جاء الوحي متساميًا فوق ذلك كله لينقل الإنسان من عوالم المحسوسات والمثال الضيق إلى منطقة تسليم عليا لا تستوعبها الأذهان، ولا تحيط بها الأفكار، لإخبار البشر بأنه الله المنزه عن كل قصر أو قصور أو تقصير، سبحانه وتعالى، وجل وتقدس في علاه.

أما تأويل الصفات تأويلًا غيبيًّا فيستحيل أن يأتي ذلك من المخلوق، وللاقتراب من توضيح هذه الاستحالة يمكن تقريب الصورة بضرب مثال ـ ولله المثل الأعلى – ولنأخذ صفة (القدرة) مثلًا، فأنت تصف من يتحرك مجرد الحركة بأنه قادر، وأنت تتصور حجم

هذه القدرة الضئيلة وصورتها، وكذلك تصف المهندس الذي صمم، وأشرف على بناء ناطحة سحاب من مئة طابق جميلة وأنيقة بأنه قادر أيضًا، لكن شتان بين القدرتين أليس كذلك؟ فإعجابك وتصورك لقدرة مهندس البناية لا يقارن أبدًا بوصفك للمتحرك الصغير بأنه قادر، فالحركة ممكن تقوم بها حتى البهيمة العجماء، بل حتى الحشرة الصغيرة، أما الهندسة فليس كل إنسان قادرًا عليها، لكنك وصفت كل منهما بالقدرة.

من جهة أخرى لو رأيت قلمًا أنيقًا لا بد أن تبدي إعجابك به وبقدرات صانعه حتى لو لم تَرَه، ماذا لو رأيت جهاز هاتف متطور؟ وماذا لو رأيت جهاز حاسب آلي متقدم؟ وماذا لو رأيت طائرة عملاقة؟ ثم باخرة أضخم منها، ستكون تصوراتك عن قدرة كل صانع منعكسة تمامًا عن حجم المصنوع ودقته، وبمجرد أنك اطلعت على الصنعة الفائقة ستكون معجبًا جدًّا بقدرة صانعها ومدركًا لذكائه وعلمه وتميزه الذي استغرق هذه الصنعة العجيبة، ومن ثم، فهو يفوقها عجبًا وتميزًا؛ لأنها جزء من كفاءته وليس العكس، وبمجرد تأمل المصنوع ستدرك قدرة الصانع، وستصف لك هذه المخترعات مخترعها وصانعها بجميع أوصاف قوة القدرة دون أن تراه، ولكن بسبب العلامات التي استنتجتها من إنتاجه وكلٌّ بحسب كفاءة ما أنتجه، ولو واصلنا المثال قد نسير مسافة متدرجة نحو الأعلى، لكننا سنضطر إلى التوقف عاجزين، إذ لا يمكن الوصول لاستيعاب كيفية صفات صانع الكون بالطريقة المتصلة نفسها لعجز العقل مبكرًا جدًّا أمام مخلوقات الخالق، أن يقترب من الشأن العظيم لخالق كل شيء، وهل يستطيع الناس مجتمعين على استيعاب خلق المخلوقات حتى يدركوا قدرة خالقها؟

عندما نحاول الانتقال من المثال إلى الواقع، نصطدم بالعجز اللفظي والمعنوي، إننا حقًّا لا نستطيع نقل التصور عن قدرة صانع الأرض بمن فيها فضلًا على السماوات العلا والكون والوجود كله؛ لأننا أمام قدرة من نوع آخر تمامًا؛ قدرة لا يمكن وصفها ولا استيعابها أو تصورها؛ قدرة باختصار تفيض عن جميع الألفاظ والمعاني والعقول البشرية، ولو لم تكن كذلك لما كنا أمام هذه المنتجات الهائلة من حياة لا نهائية من كواكب ونجوم لا حصر لها، وشيء لا نعلمه، ولا يمكن أن نعلمه، فكيف والحال هذه أن تطلب مني عرض تصور لقدرة خالق كل شيء وأنا وأنت وبنو الإنسان قاطبة جزءٌ

يسير جدًّا من هذا الشيء! يجب الاعتراف بعجزنا أمام مَنْ هذه من صفاته: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

ومن هنا وجب الإيمان المطلق بالأسماء والصفات، كما جاءت دون تأويل أو تشبيه أو تعطيل، والتضرع إلى الخالق العظيم بالدعاء بها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. هذا ما دفع علماء العقيدة الصحيحة إلى أن يقولوا للناس: نؤمن بصفات الله، كما جاءت على الوجه الذي يليق بجلال الله وقدرته وقدره، وفي هذا المستوى الراقي من الإيمان والتسليم تستطيع أن تستوعب معاني هذه الآية الكريمة العظيمة، وتتذوق جمال لفظها ومعناها مسلمًا مستسلمًا وقلبك مطمئن بالإيمان: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

*****

ثالثًا: أثر المراحل العمرية للإنسان

يتقلب الإنسان في مراحل التفكير مع تغير مراحل عمره، من الطفولة إلى الشيخوخة، وتجاهل أثر المرحلة العمرية للإنسان على هذا النوع من التفكير الوجودي الحساس يجعل الإنسان في حيرة مزمنة، فمن المعلوم أن عقل الرضيع ليس كعقل الطفل، وأن عقل الطفل ليس كعقل المميز، وأن فورة تفكير المراهق وأحلامه المتفجرة واستقلاله عمن حوله لا تقارن بهدوء تفكير الصغار ما قبل المراهقة، ولا تقارن بنضج الراشدين، ولا بطمأنينة المسنين وواقعيتهم فيما بعد، لقد أكد الفيلسوف (برتراند رسل) ذلك عندما قال: إنه ينشئ مذهبًا فلسفيًّا جديدًا كل بضع سنوات[1]، تخيل أن الإنسان

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٤١.

كتب عن موضوع واحد في مرحلة من مراحل حياته، ستسمع العجب العجاب في الفوارق في الشكل والموضوع وفق كل مرحلة عمرية، وهذا سر تقلبات آراء الفلاسفة مع تقدم العمر، بل هذا سر إيمان بعض الكبار منهم بعد أن ألحدوا في مراحل الشباب.

لقد وجدت نفسي محاصرًا بهذا المعيار العجيب عند تأليف هذا الكتاب، وعلى الرغم من وجود فكرة التأليف في مراحل مبكرة من العمر، إلا أني لم أبدأ بجمع مادته قبل بلوغ سن الثلاثين، حيث لم أشعر قبلها بالأهلية العلمية والنفسية والفكرية التي تجعلني أخوض غمار هذه البحار المتلاطمة أمواجها، العميقة غورها، الحساسة في موضوعها، وحتى بعد الشروع العملي بجمع المادة والبدء في التأليف كانت الخطة أن يتم إعداد الكتاب في مدة لا تتجاوز عقدين من الزمن؛ لاقتناعي بأن هذه الفترة العمرية هي أفضل مراحل النضج الوجودي التي يستطيع الإنسان خلالها أن يقدم تصورًا فكريًّا نافعًا متوازنًا، ونظرًا لحساسية الموضوع والحاجة إلى الاطلاع على الكثير من المراجع العلمية ذات العلاقة قديمًا وحديثًا، تجاوزت تلك المدة لأقدمه للقارئ الكريم وأنا لا أشعر بأني قد قدمت شيئًا يلاقي الحد الأدنى من متطلبات معالجة القضية بما يتناسب مع حجم التحديات المعرفية المطروحة في الساحة الفكرية في الوقت الراهن، على الرغم من أني لم أبذل في حياتي البحثية العلمية جهدًا كما بذلته هنا؛ لاعتقادي أن هذا هو مشروع العمر الذي أحتسبه عند ربي، عسى الله أن يتقبل مني ومنكم، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وهكذا تكون جهودنا نحن البشر قاصرة مهما بلغ إتقانها، إذ لا يوجد كتاب كامل شافٍ كافٍ لمخاطبة الإنسان في جميع مراحل عمره بتوازن منقطع النظير إلا كتاب الله، الحق المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو للناس منذ نزوله إلى أن يقوموا لرب العالمين، والذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] يضاف إليه كل ما ثبت ثبوتًا صريحًا صحيحًا لا خلاف عليه من أقول الرسول ﷺ مما يكون له حكم منطوق القرآن؛ لأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤].

*****

رابعًا: تغليب الخوف على الرجاء

ما أجمل خطاب الرجاء في هذا الوجود أيًّا كان مصدره! والأجمل أن يصدر من القادر على كل شيء للضعيف الذي لا يقدر على شيء، وأعلى مراتبه خطاب الله لعباده المتدفق رحمة وبشرى هو هذا البلسم المريح لكل نفس شاردة: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] ولا يعكر هذا الصفاء إلا انسداد منافذ (الرجاء) أحيانًا أمام طوفان (الخوف) في الخطاب الديني البشري، عندما يركز بعض الوعاظ على ما يروع القلوب، ويخيف الناس من الرحمن على حساب زرع الأمل والرجاء والأنس به وبرحمته وعفوه، حتى أصبح خطاب بعض المنابر بكائيًّا حزينًا كئيبًا مخيفًا، وليت هذا البكاء من سماع القرآن بجميع آياته، فهذا خشوع حميد، وليته من جراء تناول آيات الخوف والرجاء على حد سواء، كما وردت في القرآن، وهذا أيضًا حسن، ولكن من آيات الخوف انتقاءً وتحديدًا إذا ما تلاها من يملك أدوات الانفعال والتأثير العاطفي، كرفع الصوت وتقطيعه وتكراره، بينما يمر مرور الكرام على بلسم آيات الرحمة دون بكاء ولا انفعال بالموعود الجميل، حتى أصبح الناس يتدافعون إلى المساجد التي يُبكى فيها من العذاب ومن حناجر أئمة محددين.

لقد وصل الأمر ببعض الوعاظ والقراء أن أصبحوا يستشفون، ويتلمسون ما يثير التفاعل، ويجلب الحضور الأكثر إليهم، فتراهم يقنتون في صلاة التراويح قنوتًا جمعوا فيه من عبارات الإثارة والبلاغة والسجع ما لم يفعله القدوة الحسنة ﷺ ولا صحابته الكرام، يكفي أن تنظر إلى بكاء الناس في القنوت خلف الإمام، وهو يتغنى بعبارات ثلاثة أرباعها من اجتهادات البشر واستنباطهم، وغفلتهم عند سماع آيات القرآن الكريم المحكمة، المنزلة علينا من رب البشر، كلام الله الذي كان يتلوه الإمام قبل لحظات من هذا القنوت (المزلزل)، وأن تنظر أيضًا إلى من يبكي من آيات الخوف من القرآن تناغمًا مع الإمام الباكي، دون أن يذرف دمع الفرح والشكر عند سماع آيات الرحمة أو مع إمام لا يبكي ولا يتباكى، وهو يتلو القرآن مجودًا، كل ذلك يحدث في الوقت الذي يتجلى توازن الخطاب في القرآن في أرقى درجاته وأعدلها، لا نقول: إنه

فقط مساوٍ بين الخوف والرجاء، بل مغلب لجانب الرجاء والمغفرة والنعيم على جانب الخوف والخطيئة والجحيم تغليبًا يُقرّب الناس من ربهم، ويقدم البشارة على الإنذار، والرغبة على الرهبة، والنعيم على العذاب.

تأمل هذا الخطاب الرحيم من الله الرحمن الرحيم للمصطفى ﷺ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ ﴾ [البقرة: ١١٩] وفي قوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠] وأمره له سبحانه بإلقاء السلام على العباد وتبشيرهم بالرحمة التي كتبها الله على نفسه مغلبًا جانب الرجاء على الخوف: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله في وصف أنبيائه المقدمين الرغبة على الرهبة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقوله في الفصل يوم الفصل بين الناس: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴾ [الانفطار: ١٣- ١٤] وقوله تعالى لعباده مباشرة جامعًا بين الخوف منه والطمع بما عنده: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وحيث إنه لا مقارنة بين خالق ومخلوق، إلا أن العادة قد جرت على أن المخطئ من البشر يتودد لمن وقع عليه الخطأ ليسامحه، وكلاهما فقير ضعيف، أما الله وهو القوي الغني فهو الذي يتودد بفضله لمن أخطأ في حقه أن يستغفره، ووصف نفسه بالغفور الودود، مؤكدًا على وجود الأمل العظيم، ثم توجه إلى عباده بعد كل البشارات والتحذير، بأرجى وأرحم وألطف خطاب ممكن أن تسمعه في هذا الوجود، خطابًا نديًّا صادقًا يحشر الناس كل الناس إلى فسطاط الرحمة والرجاء بعيدًا عن اليأس والقنوط، ولا يستثني أحدًا مهما تجاوز، وأسرف على نفسه في المعاصي: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

*****

خامسًا: التهور في تصوّر ما لا يُتصوّر

يستحيل على الإنسان إعمال العقل فيما لا يمكن تصوره، ولذلك جاءت قاعدة (الحكم على الشيء فرع عن تصوّره) في حدود مدارك البشر لكل أو بعض الأشياء كي يحكم عليها، أما حكم المرء عقلًا على ما لا يمكن تصوره فهو بخس للحقيقة وظلم للنفس باستعجال الأحكام الجزافية واتخاذ المواقف قبل الإحاطة بالشيء علمًا، هكذا سماه القرآن ظلمًا؛ لأن التصديق أو التكذيب، والقبول أو الرد لا يتم منطقيًّا إلا بعد الإحاطة بالشيء علمًا أو بحدوث تأويله أي وقوع أخباره، وأي موقف يتخذه الإنسان تجاه أي خبر يسمعه، قبل أن يتحقق واحد من هذين الأمرين فهو تسرع في الحكم وظلم للنفس، ولقد توعد الله كفار قريش عندما رفضوا الوحي لمجرد سماع خبره قبل أن يعلموه ويفقهوه، أو يأتيهم شيء من تأويل ما ورد فيه، حتى يكون لموقفهم الرافض ما يبرره منطقيًّا، وذكر أن هذا من أسباب ضلال وتكذيب الذين من كانوا من قبلهم أيضًا، ووصفهم القرآن جميعًا بالظالمين، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

لقد كانت هذه المنهجية في التفكير ضلالًا من قريش، أنكروا من خلالها الوحي، وستكون أشد ضلالًا وأسوأ نتيجة عندما تتبع في محاولة الوصول إلى أخبار الوجود وعالم الغيب بعيدًا عن الوحي، ويستحيل الإحاطة بها علمًا من قبل جميع الخلق، وتأويلها لا يمكن أن يأتي قبل مجيء عالم آخر بنواميس وقوانين أخرى، إنه عالم القيامة القادم، ومن ثم فما يبقى أمام العاقل في الدنيا وهو يتلقى خبر الوحي إلا القبول المطلق والتسليم التام، والحذر كل الحذر من تكذيب وقائع قادمة سيواجهها، وستحيط به لا محالة؛ لأنه على موعد مؤكد مع الموت، وأما مع الإيمان الصادق فسيعيش سعيدًا، ويبقى منتظرًا لتأويله وفق الوعد الذي نص القرآن على حتمية مجيئه، حين يندم عليه المكذبون، ويستبشر به المؤمنون، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

لقد أفصح (اللورد هدلي)[1] عن سلبية هذه الإشكالية، عندما أسلم واضطر إلى كتمان إسلامه عشرين عامًا، فلما أعلنه عام ١٩١٣م وغيّر اسمه إلى (رحمة الله فاروق)، أسلم بسبب موقفه هذا أكثر من أربع مئة بريطاني خلال أشهر عدة، فتعرض لحملة تشويه قاسية، صمد أمامها صمود الجبال، وكتب بسببها مقاله الشهير (لماذا أسلمت)، وقال فيه: «نحن البريطانيين تعودنا أن نفخر بحبنا للإنصاف والعدل، ولكن أي ظلم أعظم من أن نحكم ـ كما يفعل أكثرنا ـ بفساد الإسلام - قبل أن نلمّ بشيء من عقائده، بل قبل أن نفهم معني كلمة إسلام»[2].

*****

سادسًا: وسوسة من عمل الشيطان

عندما يستحضر الإنسان هذه الحقائق الإيمانية الكبرى يصبح الوسواس الذي يتسلل إلى القلوب هامشيًّا جدًّا، ولا يظهر إلا مع بعض التفاصيل التي لا يستطيع كل إنسان الإلمام بها، خاصة أن التفاصيل في الوجود لا حصر لها، بينما الكليات الكبرى الأصلية معدودة وحاسمة، ومنقذة لأي موقف مهما كان معقدًا، وكان صاحبه مكابرًا، فمثلًا الجدال في مسائل الموت والحياة مجال يمكن أن يقال فيه كل شيء، فالمنتحر سيزعم أنه أنهى حياته بنفسه، والسفاح يرى أنه يقتل من يشاء، ويبقي من يشاء، فهو إذًا يحيي ويميت - على حد زعمه - وعملية فرز الجبر من الاختيار، والخير من الشر، والضلالة

(١) اللورد هدلي Lord Headley (١٨٥٤ - ١٩٣٥م) الموافق (١٢٧٠-١٣٥٤هـ) اسمه قبل الإسلام جورج رولاند ألسنون ورحمة الله الفاروق بعد إسلامه عم ملكة بريطانيا وأول مسلم يدخل مجلس اللوردات ومن طفولته لم يقبل تشبيه الله بالبشر أسلم بسبب قراءته نسخة (ترجمة لمعاني القرآن) وكانت هدية تلقاها من زميلة في الجيش البريطاني أثار انتباهه أن الإسلام يقوم على دعامتين: الإقرار بوحدانية الله والمساواة بين البشر فوجد بغيته الفطرية والاجتماعيه فيه كتم إسلامه عشرين عامًا حتى فجرها في حفل للجمعية الإسلامية عام ١٩١٣م حيث قال عبارته الشهيرة: «إن طهارة الإسلام وسهولته وبعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت كل هذه الأشياء أكبر ما أثر في نفسي» ولم تمض أشهر عدة حتى دخل الإسلام بسببه أكثر من ٤٠٠ من البريطانيين رجالًا ونساء: (اللورد هدلي داعية الإسلام بين قومه الإنجليز، غريب جمعة، أخبار الخليج، العدد ١٢٨٢٤، تاريخ ١٣ مايو ٢٠١٣م).

(٢) مجلة المنار- المجلد ١٧، الجزء الأول، ص٣٤، ديسمبر ١٩١٣م.

من الهداية، كلها أمور تستعصي على كثير من الناس الذين لا يملكون المعرفة الكافية لدحض هذه الشبهات، فتحدث البلبلة، ويقع التيه والوسواس، بينما خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار ومشارق ومغارب الكواكب والنجوم، والزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير، قضايا كبيرة وأصلية يلمسها الجميع بحواسهم اليقينية وعقولهم البصيرة، لا مجال لإطالة الجدل فيها، ويسهل على الإنسان فهم غموض هذا الوجود إذا انطلق من هذه الكليات المحكمة إلى الجزئيات التفصيلية، وليس العكس، وكم كان النبي إبراهيم عليه السلام ذكيًّا وفطنًا لهذه المسألة عندما حاجّه (النمرود) في ربه، فقال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ففرح النمرود لأن إبراهيم قد قدم هنا تفصيلًا يسهل استدراج المجادل إليه، وأراد إطالة الجدل في قضية الموت والحياة، فقال النمرود فرحًا: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي أقتل الإنسان أو أعفو عنه، ففطن إبراهيم لهذا الاستدراج العقيم، ولم يستجب له، بل نقله فورًا إلى المعركة المحسومة سلفًا بجولة واحدة مع كلية كبرى لا تقبل الجدل، فردّ عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وحيث إنه لا يختلف اثنان في أن الشمس تأتي من المشرق إلى المغرب، ولا يختلف أحد على عظمة من قدر ذلك، فكانت النتيجة الطبيعية أمام كل مكابر ضعيف من هذا النوع أن بُهت النمرود الظالم: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. إن إبراهيم لم يهزم النمرود في هذه المناظرة بطول قامته ولا قوة عضلاته ولا بلونه ولا عرقه بل بالسلاح المعرفي الذي وهبه الخالق له كما وهبه أي عضو من أعضائه، لقد كانت تلك هي الحجة الإلهية التي استخدمها إبراهيم، ورفع الله بها درجاته: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ولكن يبقى الوسواس وباء عامًّا لا يكاد ينجو منه أحد، ولا خلاص من الوسواس الخناس إلا بالاستعاذة منه برب الناس، فهو المنقذ وحده من الاستسلام للأوهام والوساوس ومن الهزيمة أمامها والإغراق في جلد الذات وتحقيرها عند استشعار تلك الوحشة منها، يظلم الإنسان نفسه بالاستسلام لهذا الوسواس متوهمًا أن الكارثة قد حلت، وليس ثمة مخرج ولا مهرب، وأنه وحده الغارق في الأزمة، وكأنه يعيش هذه

الحياة التصادمية المتناقضة مع نفسه داخل صدره وحده دون سواه، وأنه يجب أن يتأثر بالغير، ولا يؤثر فيهم، وهذا خلاف الواقع، بل لقد اختلف الجميع حول سر الوجود وكل من لم يؤمن بالوحي، لم يجد إلى اليوم سبيلًا للوصول إلى الحقيقة المنشودة، لقد اختلفوا ويختلفون وسيختلفون، والتحدي معهم قائم إلى الأبد بأنه بالعلم التجريبي والاستقراء الحسي البشري لم ولن يصلوا إلى كشف علم الغيب ولا معرفة أدنى سر للوجود بداية ونهاية، مهما تقدم العلم وطال به الزمن، وهذا تحدٍّ سجله من قبلنا، ونسجله اليوم، وقد يقرؤه من بعدنا، ممن نحملهم أمانة نقل روح التحدي هذا اليوم، بل والتحدي بعد عشرات أو مئات أو ربما آلاف السنين، بأن البشر لن يطلعوا على الغيب، ولن يصلوا إلى أسرار الوجود عقلًا وتجريبًا مهما عُمروا ومُكنوا وأُوتوا من قوة في العلم، وكلما اختلفوا في تفسير الوجود، احتاجوا إلى مَنْ يهمس في آذانهم مذكرًا وزاجرًا ومحذرًا لهم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٦٧-٧٠].

وهذه حقيقة تفرض نفسها، وتعني ضعف الإنسان وضرورة استسلامه لخالق الوجود، وليس للأوهام والوساوس التي هي بديل طبيعي عن الإنصات للوحي ونتيجة حتمية للصدود عنه، وقد يصل الأمر ببعض الموسوسين إلى أن يحاول التخلص من الوسواس بإنكار كل شيء ظنًّا منه أنه هرب عن الخطر من الجهة الأخرى، فينفي الغيب المستقبلي، وما سيواجهه بعد الموت، ويا لها من حماقة أن يوهم المرء نفسه بأن المخرج هو إنكار ما سوف يواجهه حتمًا في يوم لا يمكن أن يتقدم أو يتأخر، ولا ينفع فيه الندم كما لا يملك هو من شأن ذلك اليوم شيئًا!

*****

سابعًا: الفجوة بين النظرية والتطبيق

ما أجمل الواقعية، وما أخطر الإغراق في المثاليات الكبرى التي تجعل أي هامش طبيعي بين النظرية والتطبيق صادمًا للوجدان! كم نحن في حاجة إلى أن نتذكر أن الكمال

مستحيل في شأن الخلق أجمعين إلا من تولى الله إكمال إيمانهم من المرسلين المعصومين، ولا بد من الإقرار بأن التقلبات الفكرية الكبرى عبر تاريخ المسلمين تعكس أوضاعًا لا تتطابق تمامًا مع ما جاءت به النصوص المجمعة والموحدة للمجتمع، تلك التقلبات التي كان لها أكبر الأثر في إحداث بعض الاضطرابات الإيمانية والزهد في الدين عند شريحة من الناس، وأول حدث صادم ظاهرة الردة عن الإسلام وحروبها التي حدثت (بُعَيْدَ) غياب الرسول ﷺ وهم حدثاء عهد به، كذلك قصة جمع القرآن الكريم على نسخة واحدة في عهد الخليفة عثمان، وتوحيد المصحف وإتلاف ما يخالفها، وبقاء اختلاف القراءات السبع، إضافة إلى الثلاث الشاذة أيضًا، وكيف يتلقى الإنسان ذلك بتسليمٍ ويقينٍ وثقة في دينه دون أن يترتب على ذلك اضطراب أو تناقض أو تعارض ظاهري، خاصة بعد قيام المشككين من المستشرقين بالنفخ فيها من أجل زعزعة ثقة المسلم في أصول دينه، وكذلك ظهور النزعة الشعوبية في عهد العباسيين، والنزعة المادية المقدسة للعقل وجعله حكمًا على كل شيء في العصر الحديث[1]، ثم لا يوجد من جانب العلماء والمفكرين وضوح في الرؤية وتبيان ناصع يفرض نفسه بالحق أمام إثارة أي شبهة حول هذه الأحداث، خاصة أن المستشرقين في القرون المتأخرة تطرقوا إلى هذه القضايا بقوة وعن سوء قصد، فبالغوا في تضخيم الشبهات، وكتموا حقيقة المحكمات مع غياب شبه تام لأصوات الحق الداحضة لباطلهم من طرف المسلمين نظرًا لما كانوا يمرون به من ضعفٍ سياسي في نهاية الدولة العثمانية وبداية عهد الاستعمار الذي أعقب سقوطها، ولكن إسلام بعض المستشرقين كان في حد ذاته نتيجة طبيعية، إذ إنهم وجدوا اليقين في دين الحق من حيث أرادوا تشويهه، فلم يكن أمام عقولهم الناضجة إلا القبول والتسليم ومن ثم الإسلام.

*****

ثامنًا: آفة التسويف والتردد

النادمون بسبب آفة التسويف وتأجيل ما يجب اتخاذه كثيرون جدًّا، وأسوؤهم حالًا أهل الحسرة الذين أشار إليهم القرآن، وأمر الله رسوله ﷺ أن ينذر الناس منها،

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٢١.

نسأل الله العافية من حالهم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] فكل الخيارات الصعبة التي يواجهها الإنسان في حياته تهون عند ذلكم القرار الذي يحدد مصيره فيما بعد الوجود، وأخطر من ذلك تلك المجازفة في تأجيل أو تردد أو تسويف اتخاذ هذه الخطوة مع مرور الأعمار وانقضائها بلحظات تمضي ولا ترجع، إننا نقترب من نقطة النهاية بالموت الآتي على كل مخلوق لا محالة، القرار المطلوب من كل إنسان هو القفز فورًا وبأسرع خطوات ممكنة إلى الإيمان بالله وتصديق المرسلين، تصديقًا مطلقًا، والتترس بذلك عن كل ضراء في هذا الوجود، كفى والله هدر الأعمار فيما لا يجدي شيئًا.

إن العزيمة على الإيمان والحياة والموت عليه هي قرار الحكماء بكسب الوقت المهدر عادة في الجدل حول الغيب الذي كله غير مكشوف للبشر أصلًا، إلا ما أظهر الله منه، وعلى رأس ذلك كله الإيمان بوجود الله الذي هو أعظم شيء نعتقده في هذا الوجود على الإطلاق، وهو أقصى ما يمكن أن يخطر ببالٍ، مما لا طاقة لنا بالتفكير فيه مجرد التفكير، ولك أن تجرب إن شئت، فكّر عامًا أو فكّر طوال عمرك أو أوصِ من بعدك ليواصلوا التفكير لآلاف بل ملايين الأجيال من بعدك إن قدر لهم البقاء، ثم أخبرنا أو أخبر ذرياتنا من بعدنا بما توصلت إليه، ولكني سأخبرك مقدمًا إمعانًا في التحدي، أن النتيجة المغلفة بكل ألوان التحدي والتعجيز هي (لا شيء)، جرّب، ولك في ذلك كامل الحرية لتذهب إلى أقصى نقطة تستطيع الوصول إليها، فلن تصل إلى شيء من أمر الخالق العظيم ﷻ، ولم يصل من كان قبلك إلى شيء، ولن يصل من سيأتي بعدك إلى شيء، وكل ما تسمعه من فيلسوف أو مفكر عبر التاريخ ما هو إلا تكهنات ومحاولات يائسة لفهم شيء من تلكم الأسرار الوجودية المعقدة جدًّا والاختلافات البشرية عليها، تأتي مطابقة ومعارضة أحيانًا لما جاء به الوحي، أما العالِم بالخلق كله علمًا تامًّا محيطًا فهو الخالق وحده ولا أحد سواه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

بهذا القرار الحاسم بالإيمان بالخالق والاستسلام له من منطلق التصور السليم للوجود الدالّ على عظمته وقدرته تكون قد وصلت إلى المرحلة الصحيحة من التفكير الإيجابي الحر الذي ينتهي بك طبيعيًّا إلى الامتثال للأمر النبوي (فلينتهِ)، ولا أقول عليك

أن تنتهي هنا؛ لأنك ستنتهي هناك فعلًا، فهو حدّك وحسبك أيها المخلوق، ليس لأننا نأمرك بهذا امتثالًا للتوجيه النبوي فحسب، بل لأنها نقطة النهاية الحقيقية لتفكيرك الممكن وأنت بنفسك قد وصلت إليها بكل حرية واقتدار ولا حيلة لأي مخلوق البتة بتجاوزها، فستتوقف عندها مقتنعًا اقتناعًا ذاتيًّا بعجزك عما وراءها، دون أن تتهم أحدًا بالحيلولة بينك وبين أمر تبحث عنه، وهذه هي نقطة الانتهاء الصحيحة التي أشار إليها النبي ﷺ، وليست تلك النقاط المضللة التي يتبرع البعض مجتهدًا في رسمها بمنتصف الطريق الموصل إلى هذه النقطة النهائية التي ما إن يصلها الإنسان، ثم يتوقف عندها من تلقاء نفسه إلا ويكون قد جمع بين أمرين: الانتهاء المطلوب شرعًا، وطمأنينة القلب بأنه لم يُمنع من شيء خفي مريب، وهنا يحس المرء بأنه ينتهي عن التفكير طبيعيًّا وواقعًا وواقعيًّا، حيث ينقطع التفكير تمامًا لاستحالة المواصلة لعدم القدرة على ذلك، ويحل محله الإيمان والتسليم.

من المؤكد أن الإنسان لن ينتهي عن التفكير في أسرار الوجود بسبب تلك المواعظ التي تنهاه عن مواصلة التفكير فيها طالما وجد نفسه قادرًا على المواصلة والبحث، وعرقلته بمنتصف الطريق قبل وصوله لهذه النقطة تعسف في توجيهه ومصادرة لعقله وكأن الأمر تعمد لتضليله منعًا للوصول إلى شيء مأمول عنده، وهذا التوقف سيبقى مؤقتًا تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا القصيرة، أما يوم القيامة، فسيعلم الإنسان حينه علم اليقين عن تفاصيل كل شيء انتهى في الدنيا عن التفكير فيه، ومن المؤكد أيضًا أن ليس إلا الخالق وحده الذي سيخبرنا عن هذا الأمر الذي نختلف فيه بالدنيا: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

هذا ما يجعل العلماء والحكماء والعقلاء على مر التاريخ يولّون وجوههم شطر الوحي المنقذ من التيه والضلال، ويتمسكون بكل بصيص خبر سماوي يرد إليهم من عالم الغيب، شاكرين لله الذي تفضل على الإنسان بالوحي الذي هو حق مطلق وحقيقة لا تقبل المراء، الوحي الذي تنهل منه كل أمة، فالقرآن الكريم المنزل على أمة الإسلام هو للناس كافة، وفوق كونه هدى للمؤمنين، فإنه أيضًا يقصّ على بني إسرائيل أكثر أخبارهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٦- ٧٨] فما أجلَّ أن تحط رحالك المعرفية مع الله مؤمنًا به مستسلمًا له، وتبقي باب التفكير مفتوحًا في الدنيا لتزداد إيمانًا مع زيادة التفكر في خلق السماوات والأرض، ولتكون أيضًا على أملٍ عظيم بأنك ستعرف في يوم المعاد كل ما تريد معرفته من هذه الأسرار الغامضة المستعصية على فهمك في الدنيا.

*****

تاسعًا: صولة الباطل وجولة الحق

المشهد يبدو في غالب الأحيان غير متوازن عند من لا يملك أدوات التوازن، فارتفاع صوت الباطل وانخفاض صوت الحق، والضعف النسبي في المواقف الدفاعية من المسلمين ضد الهجوم الكاسح على الإيمان، والاقتصار على سرد الحجج الضعيفة، والتعلق أحيانًا بما يضعف الموقف الحواري، والخذلان السياسي والاقتصادي العالمي للمسلمين، كلها عقبات يصعب التغلب عليها لولا خصوصية دين الله الذي من معجزاته هذا الصمود الذاتي الهائل والشموخ الأسطوري للدين في وجه الخصوم مع ضعف الأتباع في الدفاع عنه، إنها حقًّا رعاية الله وحفظه له، والتوازن المطلوب هو أن يتترس المسلم بالمحكمات التي أخبرنا الله عنها بخبر صريح من أصول ثابتة لا تحتمل التأويل كوجوده وربوبيته وألوهيته ورسله والكتب التي أنزلها للدفاع عن الدين وخبر الآخرة، وأن يحذر من الانجرار نحو تفاصيل الفروع أو المتشابهات التي لم يرد الله بحكمته البالغة أن يكشف جميع تفاصيلها لعباده في الدنيا، أو يحسمها على رأي واحد، بينما تجد المشككين يتصيدونها، ويستميتون في الخوض فيها، والوضوح في الموقف أيًّا كان، هو بذاته قوة بالحق، حتى لو كان مجرد إحالة مطلقة إلى الله وعلمه ووحيه.

وهنا يجب التأكيد على أن إمكانية البرهنة المنطقية على بعض المحكمات الدينية، لا تعني ضرورة البرهنة البشرية على كل ثابتٍ ومحكم برهانًا عقليًّا يقبله الإنسان، ولهذا فلا داعي للاستماتة والتصنع المتكلف في الرد على كل شبهات المروجين بالمنطق والعقل،

فنحن بوصفنا مسلمين نتحدى بالمنطق أحيانًا، عندما يكون للمنطق مكان في الجدال، فنثبت حجتنا بالبرهان رغبة في تأليف قلب الخصم، ولكننا أيضًا نتحدى بالإيمان المجرد والتسليم المطلق لله فيما لا علم لنا به، ولا نملك له برهانًا بشريًّا، إذ يكفي أننا نقول علانية بصوت يسمعه القريب والبعيد: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] نقول ذلك بعزة المؤمن، ونفتخر به مفخرة تفوق كوكب الأرض قاطبة، بل والكواكب والنجوم والوجود كله، دون حاجة إلى تكلف برهان منطقي لكل شيء آمنا به حق الإيمان، نقول ذلك بكل انسجام وتوازن غير مكترثين بمن حولنا آمنوا بمثل ما آمنا به، أم كفروا وتولوا، واستغنى الله عنا وعنهم، والله غني حميد.

فالأصل أننا نؤمن ليس وفق فهم العقل ولا قبول المنطق فحسب، بل لأنه مجرد أمر نتلقاه بكل تسليم وانشراح من عند ربنا العظيم وكفى، لا يتطلب الأمر موافقة مخلوق على ذلك، ولسنا مسؤولين بعد ذلك عمن يسلك طريق الجحيم معاندًا ومكابرًا، فموعده مع نفسه التي تأمره بالسوء لحظة خروج روحه، وحينها سيعلم أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا، ولكن ما يجتهد به الدعاة والمفكرون من توضيح وبيان مفصل إنما هو بهدف تقريب الحق وبسطه وعرضه طمعًا في قبوله من المعرضين عنه، فالدعوة إلى الله تقتضي شيئًا من التنزل للمصلحة أحيانًا دون التنازل عن المسلمات التي على رأسها الإيمان المطلق بالله تعالى، إننا نحب الهداية لنا وللناس جميعًا، ولكن ليس علينا هدايتهم، وربنا من قبل أخبرنا بأنه يرضى لنا الشكر، ولا يرضى لنا الكفر، ولن نذهب أنفسنا حسرات على الكافرين؛ لأنهم بعنادهم لم يهتدوا، ولا يضرنا من ضل إذا اهتدينا، ونطاق التكليف يبقى في حدود التذكير والذكرى دون حرمانهم من التفكير المؤدي إلى اليقين إذا أرادوا ذلك.

إن العبودية الصحيحة لله تعالى تقتضي التسليم والاستسلام المطلق، فأنت عندما تقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران: ٧] فإنك لست ملزمًا بأن تتكلف إثبات موافقة كل عقل على كل نقل وفق مبادئ المنطق البشري، فليس صحيحًا أن كل نقل (نص صريح صحيح) لا يتعارض مع العقل (المنطق والفلسفة)، بل النقل أسمى وأعظم من جميع العقول مجتمعة، والعقل الصحيح يقبل ذلك مستسلمًا للجبار، فيصبح غير

متعارض مع النقل الصريح، ومقام النقل عظيم جدًّا، تذكر أننا نتحدث عن وحي الله وشرعه ودينه وأمره ونهيه، فنحن أمام مقام الجبار القائل عن مقام ملائكته الخاضعين له: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فمن تكون أنت أيها الإنسان، كي تخضع كل شأن كوني لحكم عقلك القاصر عن ذلك كثيرًا، فالوحي جاء لمخاطبة العقول طبعًا، ولكن له الكلمة الفصل عليها والهيمنة المطلقة على كل معرفة فوقها: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

لا بد أن نتأدب مع الله تعالى غاية الأدب، فلا مقارنة بين كلام خالق العقول والمعقول وغير المعقول، وما قد تتوصل إليه تلك العقول المتباينة من أفكار قاصرة ليس من الإنصاف أن نحكِّمها على الوحي العظيم، بل الوحي هو الحاكم والمهيمن عليها، فالإيمان بكيفية حدوث الإسراء والمعراج ـ مثلًا – وتفسير أداء مناسك الحج كالرمي والطواف والسعي، واستقبال القبلة والمسح على الخفين، والتيمم، تلك عبادات تسليمية محضة لا سلطة للعقل عليها، ولا ينتظر منه قبولها أو رفضها، وكل المحاولات التفسيرية الدنيوية لمثل هذه الشعائر على أساس عقلي محض، دون الإشارة إلى أنها طاعة، كل ذلك ما هو إلا تكلف لإرضاء الآخرين، ويعكس ضعفًا في الحجة لا حاجة لنا به ولا علاقة له بحقيقة هذه العبادات والحكمة من ورائها؛ لأننا عبيد ضعفاء أمام سيد قوي ونواصينا بيده.

مقتضيات العبودية لله واضحة جدًّا، ويجب ألا نستحيي، ولا نخجل أن نكون مفتخرين موقنين حق اليقين بتلك العبودية، حتى إن وجدت طائفة أخرى تكفر بها، وعندما أطلب منك عدم البحث عن برهان عقلي لكل أمر غيبي، فإني لم أتركك معلقًا في الفضاء، بل أحيلك إلى بلسم كل معضلة، ومفتاح كل أمر متعسر وعلاج كل إشكالية، أحيلك إلى أصل الأصول كلها، وهو الإيمان بالله الأكبر، الإيمان بالله القادر على كل شيء، الإيمان بالله وكفى، هذا الإيمان الذي يمكن من خلاله قبول وتفسير سر وجود كل موجود وظاهرة مجملًا ومفصلًا، والدخول إلى كل قضية مستعصية ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وهذه الإحالة هي الخيار الأوحد للنجاة ولا خيار سواها.

*****

عاشرًا: (المعتقدات) و(المعقولات) و(المحسوسات)

من أسباب نشوء الشكوك والأوهام المشوشة على الإيمان الخلط بين ثلاث قضايا مؤثرة في التصورات العامة: قضية الإيمان بالغيب اعتقادًا، وهذه (موضع الابتلاء والاختبار)، وعليها يترتب العمل والجزاء والحساب بعد الموت، وقضية الاستنباط والاستقراء والاستدلال والاستنتاج عقلًا (وهي العلم التجريبي، الفارق بين الإنسان والمخلوقات الأخرى)، وعليها تقوم المنافع الدنيوية وعمارة الأرض، وقضية إدراك المحسوسات المادية بالحواس المعروفة (التي يتساوى فيها الإنسان مع غيره من المخلوقات)، وهي ضرورات الحياة التي لا تمايز فيها ولا جزاء ولا حساب، والمقصود بالخلط هو عدم التمييز بين هذه (المعتقدات) و(المعقولات) و(المحسوسات)، وهذا الخلط يؤدي غالبًا إلى التيه والضياع الفكري وبلبلة الإيمان، ولا يتسق مع سر الابتلاء بين الخلق في قضايا الإيمان والتصديق، خاصة عند من يريد حصر قبوله للمعتقدات في قبول العقل لها، كقبوله للمعقولات والمحسوسات؛ لأنه قطعًا سيصل إلى مأزق إذا صادفه أمر فوق قدرة العقول والحواس، كما هو الحال في جميع عوالم الغيب.

إن التعامل مع كل قضية من هذه القضايا دون خلطها بالأخرى هو من أهم خطوات تنظيم العقل للتفكير السليم، فالرب الذي يجب الإيمان به لا يمكن إخضاعه لأي منظومة فكرية أو تصور أو حتى خيال، فكيف يُدرك عقلًا فضلًا على الإحساس به، لكن الاعتقاد يسير جدًّا إذا كان على بصيرة، فكل إنسان له أدنى عقل يؤمن بأن الرب الأعظم الخالق هو العظيم الذي من عظمته أنه لا تدركه الأبصار، هو الرب الذي ليس كمثله شيء، هو الرب الذي يعلم ما في نفوسنا، ولا نعلم ما في نفسه، هو الرب الذي لا يثبت وجوده بالعقول وحدها ولا بالحواس، ولا بالعلوم التجريبية التي هي جميعًا فرع من مخلوقاته الدونية جدًّا، إذ لا بد من الاعتماد على الوحي وخبر الخالق الأعلم الأحكم عن نفسه ﷻ، فلا مقارنة بين علم الخالق العالم بكل شيء، وعلم المخلوقين الذين مهما بلغوا فلم يؤتوا من علم الوجود إلا قليلًا، ولا يليق تصور هذه المقارنة غير المتكافئة بحق الخالق ﷻ.

ومن هنا، ولكي يستقيم الأمر، ويحصل التوازن والانسجام الوجودي يجب الفزع إلى ملاذ الإيمان الفوري دون أدنى تأجيل أو تسويف، الإيمان بالرب الإله الواحد ذو الأسماء الحسنى والصفات العلا الحي الباقي، دون انتظار لإدارك الحواس الضعيفة التي لن تدرك ذلك أبدًا، أو تلمس براهين العقول المحدودة، وهذا الإيمان لا يخضع لنظريات البشر وتصوراتهم وخيالاتهم، بل يجب أن يكون فقط على الكيفية التي أخبرنا بها الوحي، دون أي ضرورة للتشبيه، أو التمثيل، أو التكييف المستحيل، أو التكلف في الخيال الباطل القاصر، أو التأويل الممجوج أحيانًا؛ لأن الله تعالى هو الله الذي وصف نفسه بأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأنه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهذا الرب أيضًا له صفات القدرة المطلقة، فهو يخلق كيفما يشاء، ويقدر كيفما يشاء، ويختار كيفما يشاء، ولا ينتظر من خلقه الضعفاء إذنًا، بل هو القادر على كل شيء، يقدر كل ما يريده تقديرًا، ويحكم ولا معقب لحكمه، ويقضي ولا رادّ لقضائه، فهل بقي لنا بعد هذا من خيار سوى الاستسلام والإيمان بالخالق الذي هذه هي أسماؤه وصفاته إيمانًا مطلقًا وكفى، هذا هو ناموس غريزة حب السجود عند الذين أوتوا العلم، الذين يخرّون لله سجّدًا عند سماع تلاوة كتابه إيمانًا به وتعظيمًا لقائله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

يؤتى الإنسان أحيانًا من مداخل الغرور والطغيان وتضخيم الإنسان لذاته الصغيرة باستشعاره أنه هو وحده مركز الوجود كله، وأن ما يدور بعقله سيحدد مصير الكون وجودًا وعدمًا، وأنه بغروره هذا يشعر وكأنه (ديك) لا تشرق الشمس إلا لتسمع صياحه! وأنه بإيمانه ستشرق الشمس بنورها، وبكفره سيحلّ الليل بظلامه، وكأنه في موقف المساوم والمفاوض، بل والمبتز أحيانًا، وكأن المخلوقات بأسرها والكون كله في انتظار إعلانه التاريخي، أنه آمن بالحق والخالق والوجود والموجود، وكأن الكل أيضًا ينتظر هذا التصريح النبيل منه، وإلا فسينتهي الكون، ويكون مصير الوجود في عالم المجهول والسواد، وغير ذلك من الأوهام الباطلة التي منبعها الغرور وتضخيم الذات، بينما الحقيقة مختلفة تمامًا، فالإنسان وإن كرمه الله على الخلق امتحانًا له، إلا أنه

لا أثر له على منظومة الوجود حتى يكون لبيانه عن نفسه أثرٌ يذكر على الوجود، المسألة باختصار هي مجرد ابتلاء من الخالق العظيم الغني لواحد من جنس خلقه الذي لا يعلمه إلا هو، وهذا الابتلاء للإنسان منه يبدأ وإليه ينتهي في مرحلة التكليف الشرعي التي يكون فيها الإنسان في منتهى الحرية لاختيار خيار من خيارين كليهما بيده ما دام في مهلة الأجل: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] أما شأن بقية الوجود فهو من أمر ربي وحده سبحانه.

وفضلًا على أنه قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فإن اختفاء الأرض كلها بمن عليها وما في باطنها، بل واختفاء المجموعة الشمسية بكواكبها التسعة أيضًا، لا يعني شيئًا في حجم وجود هذا الكون بأجرامه العملاقة وفضائه الفسيح، فكيف بالوجود كله الذي لا مجال للإحاطة البشرية به، هذا إذا لم يكن هناك (وجودات عظمى) لا نجرؤ عقلًا على مجرد تخيلها، ومن يدري سوى مُوجِد كل موجود، لقد اضطرب عقل العالم الفيزيائي الشهير (أينشتاين) عندما وصل إلى هذا الحد المتقدم من التفكير ووصف تعطشه لمعرفة الحقيقة المستعصية بعد هذا الحد، فيقول: «أريد أن أعرف كيف خلق الإله الكون، أريد أن أتعرف إلى أفكار الإله، والباقي سيكون تفاصيل مكملة، إن معرفة الإنسان عن الكون، كطفل داخل مكتبة ضخمة، فيها مجلدات كتبت بلغات متعددة، يدرك يقينًا أن كتّابًا كتبوا هذه الكتب، ولكنه لا يدري كيف، ولا يفهم اللغات التي كتبت بها، ويدرك يقينًا أن الكتب قد رصت في المكتبة بنظام ما، لكنه لا يعرفه)[1].

*****

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص٨٥.